

التغريب وأثره في الثقافة الإسلامية

الدكتور عدلي بن يعقوب¹

This article discusses about some Muslim literary figures were and still under the influence of the West. During the colonial periods, through education and cultural encounters, a new generation of locals who were imbued with Western orientation emerged. The newly westernized locals later occupied significant positions the society and government. On the other hand, there were also a handful of Muslims who went to the West and studied but remained comfortable with their own culture and were hardly westernized. They remained Islamic and were moderate. Upon their return, they benefitted their people and society.

مقدمة:

كان للغرب ولا يزال تأثيراً على بعض أدباء الإسلام. ويرجع ذلك لأسباب كثيرة، وتراكمات مرّ عليها زمن طويل. بدأ هذا التأثير يتجلى في فترة الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين في القرن الماضي، وعندما أحس الاستعمار بقرب رحيله. أهل أذنايه من أبناء الأمة الإسلامية، والذين فضلوا الأجنبي على أبناء جلدتهم فصاروا مستغربين. أهلهم الاستعمار الى أن أمسك بعضهم بمقاليد الحكم في بلدانهم، ونفذوا سياسيات الاستعمار. وهناك أسباب أخرى أدت إلى زيادة التأثير الغربي على أدباء الإسلام سنورها في هذه المقالة حتى نوضح أصل الداء. ولكن من ناحية أخرى هناك أدباء إسلاميين، قد صمدوا أمام مغريات الغربيين لهم. على الرغم من أنهم ذهبوا إلى الغرب في ريعان شبابهم لغرض الدراسة. فهؤلاء العلماء الشرفاء قد تمسكوا بهويتهم الإسلامية، ولم يفرطوا فيها أبداً. وعندما عادوا إلى بلدانهم، قد أفادوا مجتمعاتهم، وكانوا قدوة حسنة

¹ الدكتور عدلي بن حاج يعقوب من مواليد " محافظة باسبر ماس" كلنتن، ماليزيا، ولد فيه 20-11-1972 م، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها، وتعليمه الثانوي في معهد الحميدية الدينية بولاية سلانجور و المعهد الديني بدولة الكويت. حصل على البكالوريوس 1995م من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ثم الماجستير في الأدب المقارن 1997م من جامعة ليدس ببريطانيا (University of Leeds, United Kingdom)، ودكتوراه في الأدب الإسلامي المقارن في 2005م من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. التحق في وظيفة مساعد تدريس في 1995م بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية معارف الوحي والعلوم الإنساني بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ثم ترقى إلى درجة المحاضر، ثم الأستاذ المساعد في نفس القسم. له أبحاث عديدة وكتب في مجال الأدب الإسلامي الملايوي والعربي.

لشباب المسلمين. وسنتطرق إلى نماذج منهم لكي يعرف الجميع أن الخير موجود في الأمة الإسلامية. والحمد لله كثيرا على نعمائه، والله من وراء القصد معين.

تمهيد:

تعرضت معظم الدول الإسلامية إلى الاستعمار الأجنبي، من قِبَلِ بعض الدول الغربية. وعمد ذلك الاستعمار البغيض إلى بث سمومه في الأمة الإسلامية، وخاصة في صفوتها وهم رجال العلم والآدب. وقد قاد ذلك الاستعمار مجموعة من الدول الغربية من أهمها : فرنسا، بريطانيا، هولندا، وإيطاليا. وقد استنزفت هذه الدول ثروات الأمة الإسلامية، واستغلتها أسوأ استغلال. سعى الاستعمار طوال فترة استبداده وحكمه للدول الإسلامية إلى فرض ثقافته، ومحو الثقافة الإسلامية. فتقافة لا تتناسب مع حال الأمة الإسلامية ، لأنها مبنية على المعرفة التجريبية المادية. والتي تنكر المصادر الأخرى للمعرفة مثل الوحي، بينما تقوم المعرفة الإسلامية على الوحي والعقل وكتاب الوجود المحسوس. فهي جامعة وشاملة². وقد استعان المستعمر الأجنبي بعدة وسائل لتحقيق مقاصده الخبيثة، من محاولة طمس الهوية الإسلامية، ومحو الثقافة الإسلامية من الوجود، لأنها تمثل له - من وجهة نظره - مخاطر لا يحمد عقباها، واستبدالها بثقافته المستندة على نهضته الحديثة التي أساسها العلوم والمعارف والتخصصات القائمة على أسس وضعية ونزعة مادية، والمعتمدة على المذهب الحسي والمعرفة التجريبية. وقد انطبع فكر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع الدهري الحسي. ومن أهم الوسائل التي استعان بها الاستعمار الغربي الآتي:

أولاً: إثارة الفتن:

اعتمد الاستعمار الغربي، على هذه الوسيلة كثيرا لتفتيت الدول الإسلامية وبعثت ثقافتها، فشجع الأقليات داخل الدول الإسلامية على الثورة والتمرد. وذلك لاستنزاف موارد الدول الإسلامية، وجعلها دائما مشغولة ومهمومة بتلك المشاكل، وبذلك يقل اهتمامها بالتعليم ومصادر الثقافة الأخرى. فتقع في النهاية فريسة ضعيفة في أيدي الاستعمار الغربي، فيعيد تشكيلها الثقافي والحضاري كما يشاء. وبالطبع بما يخدم

² د. محمد عمار، 1991م، إسلامية المعرفة، القاهرة: دار الشرق الأوسط، ص15.

مصالحه ويحقق أغراضه الظاهرة منها والباطنة. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما فعله الاستعمار في مصر.

فقد دأب الاستعمار الفرنسي ومن بعده الإنجليزي على ذرع بذور الفتنة في وسط المجتمع المصري، فحرض الأقليات المسيحية، وجعلها تستشعر بأنها مضطهدة. وبصورة غير مباشرة شجع الاستعمار المتشددين الإسلاميين على كراهية المسيحيين. وبهذا خلق الاستعمار كراهية بينهما يعاني المجتمع المصري منها حتى يومنا هذا. وبالأمر القريب حدثت اشتباكات بين المتشددين الإسلاميين والمسيحيين راح ضحيتها عدد من المسيحيين، فتجمعوا في الكنائس واستعدوا للثأر، ولكن الشرطة حالت بين المتشاجرين. فهذا أوضح مثال على انشغال الدول المسلمة بأمور ما كانت لها أن تحدث لولا ذرعها الاستعمار الذي رحل من بلاد المسلمين، ولكن ترك آثاره يعاني منها المسلمين، وسيعانون في المستقبل لو أنهم لم ينتبهوا ويحلوا مشاكلهم بالتّي هي أحسن. ولذلك وقف الشعراء وقفات جليلة وعظيمة في وجه الاستعمار الغربي، محمسين الشباب، للدفاع عن أوطانهم وهويتهم، يقول أحمد شوقي:

وللأوطان في دم كل حرٍّ يدٌ سلفت، ودينٌ مستحق

وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ³

الأوطان لا تُبنى من العدم، فلا بدّ من الشباب أن يبذل قُصارى جهدهم في بنائها، وتشيد حضارتها، وعمرانها. فالوطن دينٌ مستحقٌّ في رقاب الشباب. ونيل الحرية من المستعمر يحتاج إلى الجهاد، والاستعداد النفسي والجسدي، وبذل الدماء رخيصة من أجل الأوطان، فالتحرير من الطغاة ليس أمراً سهلاً، ولعل ما يحدث الآن في كثير من البلاد العربيّة وغيرها لهو دليل حاسم. على ما نقول.

أما في السودان فقد رحل الاستعمار البريطاني عنها في عام 1956. بعد أن بذل جهده في محاولة تغيير ملامح المجتمع السوداني الأصيل، ولكن هيهات، فقد تصد له الحادبون الأحرار من علماء وأدباء وشعراء.

وعندما استشعر الاستعمار الغربي قرب رحيله، بذر الاستعمار بذور الفتنة في جنوب السودان. فقفل الجنوب ومنع الشماليين عن زيارته والإقامة فيه، ومنعهم من الاحتكاك بالجنوبيين حتى لا يؤثروا عليهم

³ - عباس حسن، المتنبّي وشوقي، دراسة ونقد وموازنة، (مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مطابع دار المعارف، عام 1976م)، ص360.

ويدخلهم في الإسلام. علماً بأن الشماليين مسلمون كلهم، ومعظمهم متعلمون في ذلك الزمن، والجنوبيون نسبة الإسلام فيهم قليلة، ومعظمهم غير متعلمين في ذلك الحقبة. وباختصار حدثت حروب وتمرد من قبل الجنوبيين منذ استقلال السودان انتهت في الآخر بانفصال الجنوب عن الشمال.

وفي مناطق كثيرة من بلاد المسلمين سلك الاستعمار الغربي فيها نفس السلوك، في سوريا، والعراق، وتونس، والجزائر وغيرها من بلاد المسلمين، ولكن وقف له الأدباء والشعراء يقارعون الحجة بالحجة، ويذودون عن أوطانهم بالغالي والنفيس. وأبو القاسم الشابي له وقفات جميلة في صدّ الاستعمار الغربي، فالشعوب نفسها الواقعة تحت ظلم الاستعمار واستعباده لا تستسلم، وأن تكافح من أجل حياة حرّة كريمة. ومن ثمّ نجد الشابي قد اهتدى إلى أن الكفاح رهن بتلك الحقيقة النفسية الإنسانية الرائعة: إراد بالحياة. فمن شأن طبيعة النفس الإنسانية أن يتنازعاها في كل وقت دافعان؛ دافع الحياة، ودافع الموت. وتظل حياة الإنسان في عفوانها ما دام لدافع الحياة في نفسه الغلبة على دافع الموت. فإذا ضعف دافع الحياة في نفسه كان الموت أولى به، أو كانت حياته أشبه بالميت. لقد نقل الشابي أن الشعب لن يخرج من حالة الموات إلى عفوان الحياة إلا إذا نشط فيه دافع الحياة، إلا إذا "أراد" حقاً أن يكون شعباً حياً. وهذه الإرادة لا تتحقق بطريقة عفوية، بل هي رهن بمدى قوة الأشواق والآمال والطموحات إزاء الحياة. فإذا اشتعلت في نفسه هذه الأشياء تولدت الإرادة، وتغلّب فيه دافع الحياة على دافع الموت، وعندئذ يصبح الطموح دليلاً للإنسان إلى المغامرة. فإذا خمدت أشواق الحياة، في نفس الإنسان، فقد الطموح، وكف عن المغامرة، وصار حياً كأنه ميت، أو ميتاً كأنه حيّ.

ففي العراق أشعل الاستعمار الفتنة الطائفية التي ظلت مشتتة إلى الآن. وأيضا في عدة مناطق أخرى لا يتسع لذكرها المجال الآن، ولكن النتيجة أن ذلك الاستعمار الغربي لا يحب الخير للأمة الإسلامية فحاربها بعدة وسائل. ومن أنواع الفتن الخطيرة التي مارسها الاستعمار الغربي في بلاد المسلمين هي: إحياء الفرق الضالة، فأحيها وأعاد بثّها من جديد من خلال أطروحات، ودراسات جامعية كاذبة ومضللة، فذكرت هذه الدراسات السامة أن تلك الفرق كانت حركات حرية وعدالة اجتماعية، ومن أبرز هذه الفرق: القرامطة، والمانوية، والمزدكية، وغيرها. ولم يكتف المستعمر بالدراسات المروجة لهذه الفرق الضالة بل كرس وقته وماله لإقامة المؤتمرات في شتى أنحاء الأرض شارحا ومدافعا عنها بأشرس الوسائل. بالإضافة إلى ذلك احتضن الاستعمار النحل السياسية التي تولدت من الحداثه، ذات الطابع الإلحادي.

ثانياً: الإستشراق:

هو دراسة الثقافة الشرقية من جانب الغربيين، لأجل خدمة مصالح الاستعمار الغربي، ونشط الإستشراق ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر. أما المستشرقون هم الذين جاءوا من الغرب، سواء عسكريين أم مدنيين، ففهم الأطباء، والمعلمين، والأدباء، والقساوسة، وغيرهم. تعلم هؤلاء اللغة العربية واتقنوها، وكان هدف البعض منهم، هو النيل من الثقافة الإسلامية واستبدالها بالثقافة الغربية، وغسل أرمضة الشعوب الإسلامية وإيهامهم بأن العلم والحضارة موطنها في الغرب. فمن أرادها فعليه بتعلم اللغات الغربية، وتقليد الغربيين في كل شيء. في ملبسهم ومأكلهم وعاداتهم وتقاليدهم. أما القساوسة منهم، فكان هدفهم واضح وصریح ألا وهو التبشير بالدين المسيحي، " وكانوا يترددون بكثرة على لبنان، وسورية، ومصر⁴.

كانت مهمة الإستشراق تصب في خدمة الاستعمار الأجنبي، فعملوا على تشويه التاريخ، وشوهوا بطولات الجهاد والاستشهاد التي قام بها العرب والمسلمون في فلسطين. وفي دول إسلامية أخرى كانت تقاتل لنيل استغلالها المشروع، كما أنهم أنكروا الوحدة الإسلامية، وقسموا تاريخ المسلمين إلى دول أموية، وعباسية وأيوبية وعثمانية. مثلما فعل المستشرق كارل بروكلمان الألماني في (تاريخ الأدب العربي)، وتبعه من تبع. وأخطر ما قاموا به هو بث سموم الفرقة والكراهية في وسط المجتمعات الإسلامية، وجسدوا الشعار الاستعماري المعروف وهو فرق تسد. فحفزوا الأقليات، وأثاروا النعرة القومية. نعم روجوا للقومية بشتى أشكالها لكي يقضوا على الوحدة الإسلامية، التي استبدلوها بالقومية العنصرية التي لا تحترم الدين.

ثالثاً: التغريب ومجالاته المختلفة:

التغريب هو: " حالة التعلق والإعجاب والتقليد والمحاكاة للثقافة الغربية، والأخذ بالقيم والنظم وأساليب الحياة الغربية. بحيث يصبح الفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم الذي له هذا الموقف أو الاتجاه، غريباً في ميله وعواطفه وعاداته وأساليب حياته، وذوقه العام وتوجهاته في الحياة"⁵. والتغريب هو صناعة الدول الغربية المستعمرة، فهي التي أوجدته ودعمته لتحقيق غاياتها. ومن أهم هذه الغايات هو الإبدال الثقافي، الذي يعني إبدال الثقافة الإسلامية وإحلال مكانها الثقافة الغربية. ولهذا التغريب عوامل داخلية وهي ضعف الدول

⁴-أنظر: أنور الجندي، 1999م، الفكر الإسلامي، القاهرة: دار الفضيلة، ص 189.

⁵ شلتاغ عبود، 2001م، الثقافة الإسلامية، بيروت: دار العماري، ص 31.

الإسلامية وقابليتها للتخلي عن ثقافتها، وعوامل خارجية تتمثل في قوة المستعمر وقدرته على فرض ثقافته على المسلمين المحليين. فتوجد هناك مصطلحات كثيرة تستعمل للتغريب وهي: التحديث، والمسح، والتفسيخ، والذهاب، وغير ذلك. ومن مجالات التغريب الآتي:

مجال المناهج: وهي إحدى مجالات التغريب، حيث حرص الاستعمار الأجنبي خلال حكمه للدول الإسلامية على فرض مناهج العلوم المرتبطة بدراسة الإنسان والعلوم المرتبطة بالطبيعة، دراسة عقلانية. وهذه المناهج فرضت في غير ميدانها؛ لأن ميدانها الحقيقي في الدول الأوروبية التي تختلف عن الدول الإسلامية أخلاقاً وتاريخاً وحضارة، لذلك السبب جاءت النتائج غير واقعية. وزاد الاستعمار وكذلك التعمق في التغريب، وذلك بتفسير الظواهر الاجتماعية في مجتمعنا بنفس الأدوات التي فسرت بها الظواهر الاجتماعية في الغرب. وإذا رجعنا إلى لبّ الموضوع بعد هذه الدراسات الضرورية، نجد أن الطلاب الذين أرسلوا بعيداً عن بيئاتهم الإسلامية للدراسة في الغرب لدراسة العلوم الاجتماعية، كالتاريخ وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والجغرافيا، والتربية. يعودون وقد أسبغوا بالثقافة الغربية. وهذا هو التأثير الخطير الغربي في علماء المسلمين. تنبه محمد على باشا إلى أن الطلاب الذين يذهبون إلى الغرب كانوا كلهم يدرسون العلوم الاجتماعية، فأرسل البعثات الأولى إلى فرنسا لدراسة العلوم التطبيقية. وهي أقل خطراً من العلوم الاجتماعية، لأن العلوم الاجتماعية تأثيرها مباشر، لأنها وضعت لنتناسب مع البيئة الأوروبية. فيأخذها طلاب البلاد الإسلامية، وينقلوها بحذافيرها إلى بلدانهم، وبذلك يغرسوا قيم وأخلاق غريبة عن مجتمعاتهم. ليس فقط تأثر بها هؤلاء الطلبة الذين تشبعوا بالثقافة الغربية، ولكنهم أيضاً صبغوا أبناء جلدتهم بهذه السموم، وبنتك الأفكار، وبذلك صار الضرر أكبر ومتشعب. والحمد لله قد تنبه بعض علمائنا ومفكرينا إلى هذه الفتنة الخطيرة، وأوجدوا لها الحل الشافي، وهو أسلمة المعرفة، التي كان رائدها إسماعيل الفاروقي من جامعة (تمبل) بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي أسس (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، وبهذا الشعار نستطيع أن نؤسلم العلوم الحديثة، وأن نضبطها بالرؤية الإسلامية حتى تتفق مع التصور الإسلامي، وإطارة المعرفي.

يقول المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة عن "إسلامية المعرفة": "هذا شعار جديد... وأن جدته لا تعني جدة المضمون الذي يعبر عنه .. فإسلامية المعرفة هي مهمة فكرية، ورسالتها ثقافية عرفتتها حضارتنا منذ ظهور الإسلام"⁶.

مجال التعليم: وهذا مجال واسع للتغريب وجد المستعمر فيه ضالته، وقد يحقق للمستعمر رغباته بطريقة جماعية ومنظمة، انظر كم عدد الطلبة الذين يتخرجون من الجامعات والمعاهد في السنة. إذن فإن الذين قاموا بعملية التغريب في مجال التعليم، فقد اختاروا المجال الصحيح والأرحب من وجهة نظرهم. فبواسطة التعليم تصبغ عقلية الأمة الإسلامية، بصبغة تتخلى فيها عن مقوماتها الشخصية الأساسية في الدين والقومية والعادات واللغة. والنتيجة تكون تلبسها بمقومات حضارية طارئة، أساسها من الغرب الذي يتصف بالتحلل الأخلاقي والبعد عن الدين. هذه العملية التغريبية في مجال التعليم غرسها المستعمر بدقة ووضع لها الخطط. فنبتت بسهولة على نطاق المدارس، لأنها وجدت صفحات التلاميذ بيضاء، أما بالنسبة للكبار من طلبة الجامعات والمعاهد العليا، فاحتاج الأمر إلى تفرغ عقولهم أولاً عن الإرث الإسلامي ثقافة وعقيدة وفكراً وسلوكاً. كما دأب المستعمر على إملاء الفراغ، الذي أوجده في عقول الكبار، بالقيم الأخلاقية الأوربية وبالثقافة الغربية، وأوهمهم بصلاحياتها لهم⁷. اتبع المستعمر خطه تلك بتعميق الصلة مع الشباب المسلم حتى يستطيع أن يلعب بعقله. فأنشئ المدارس الأجنبية في تركيا عاصمة الخلافة الإسلامية سابقاً، ثم في بلاد الشام؛ لبنان وسوريا وفلسطين، وفي جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان، والدول الإسلامية الأخرى سواءً في قارة إفريقيا و أرخبيل الملايو أم غيرها، ولم يكتف الاستعمار، وإنما أنشئ الجامعات، وأكثر من ذلك، مثل المراكز الثقافية، التي بإنشائها صار اللعب على المكشوف، وصار المستعمر الأجنبي لا يستر، ولا يخفي نواياه الحقيقية، نعم أسماها المراكز الثقافية، فإذا ركزنا على كلمة " الثقافية" فبسهولة ويسر نفهم أن هذه المراكز الثقافية هي النبع الذي يريد المستعمر لشبابنا المسلم الشراب منه. حتى يرتوي من الثقافة الغربية، ويتخلص من ثقافته الإسلامية، وبذلك ينسلخ من جلده ويلبس جلداً آخر لا يتناسب معه، ولا يتعايش معه بأمان، فيصاب ذلك الشاب بالاضطراب، وعدم تحديد الهوية. فهويته الإسلامية قد تركها، والهوية الغربية التي أغرتة تحتقره لعرقه أو لأي سبب آخر معنوياً أو مادياً. فيتوه هذا الشاب، فهو غير قادر

⁶ محمد عمارة، 1991م، ص 6.
⁷ د. اسماعيل الفاروقي، 1984م، أسلمة المعرفة، الكويت: دار البحوث العلمية، ص38.

على اللحاق بهويته الإسلامية، وأيضاً غير قادر على الإنصهار في الهوية الغربية. لم يكتف القائمون على أمر المدارس الغربية على جعلها مزرعة للثقافة الإسلامية في عقول أبناء المسلمين فحسب، بل تعدى دورها إلى أكثر من هذا، وصارت هذه المدارس مبعثرة بالدين المسيحي لأبناء المسلمين. كل هذا يحدث جهاً نهاراً أمام أعين الناس، وبالطبع لا أحد يستطيع أن يتخذ ضدها أي إجراء؛ لأن المستعمر الذي كان يمسك بزمام الأمور كان يحميها ويمولها ويحتضنها. إذن كانت هذه المدارس مفروضة بالقوة على واقعنا المسلم، ولكن المثير للاستغراب والاستهجان أنه عندما رحل الاستعمار عن ديار المسلمين، ظلت ذات المدارس التبشيرية في مكانها، ولا أحد يتعرض لها. والسبب لا يخرج من اثنين لا ثلاث لهما، فالأول قد يكون جهل الناس، وعدم فهمهم لطبيعة، وأهداف تلك المدارس، وهذا في حد ذاته كارثة، لأن تلك المدارس المزعومة كانت تفصح عن نواياها في وضوح النهار، والسبب الثاني: هو أخطر وأمر من السبب الأول: وهو جني الاستعمار ثمرات من الزرع الذي غرسه في أراضي المسلمين، وبأسلوب آخر أن المستعمر خطط ودبر عملية غسل العقول المسلمة وملأها بالثقافة الغربية. فعند رحيل المستعمر نجده قد حصد ما زرع. وفئة من المسلمين قد نجح المستعمر في حقنهم بثقافته الفاسدة، وبعد رحيل المستعمر أمسك بعض هؤلاء المستعمرين بزمام الحكم، فنفذوا سياسات المستعمر العدوانية تجاه المسلمين، فهنا المصيبة أكبر، والهول أعظم، والمرارة أشد. لأن هذه المرة أتت السهام من أبناء المسلمين أنفسهم، وذلك بعد ما أضلهم الاستعمار الأجنبي بشتى أوجهه. ولكن نسال الله تعالى الغفران لنا ولهم، ونسأله تعالى أن يبسر عودة هؤلاء الأبناء العاقين إلى رشدهم، ليصوبوا سهامهم التي اكتسبوها من الأعداء تجاه الأعداء أنفسهم، حتى نستفيد من تجاربهم مهما كانت مريرة، وعفى الله عما سلف بشرط الا يخرطوا في صفوف الاستعمار مرة أخرى، والمهم والمفيد أن ننظر إلى المستقبل، ونعمل لأجله بجد حتى ينشأ جيل جديد متشبع بالرؤية الإسلامية، متماشياً مع التصور الإسلامي فكراً وعقيدة وعملاً. وبذلك تتوفر لامتنا الإسلامية السلامة والأمن والاستقرار، ونعلم الشعوب الأخرى، وتهتدي إلى نور الإسلام من خلال أقوالنا الطيبة، وأفعالنا المخلصة، فهذا ليس محال، ولكنه سهل المنال. فقط نحتاج إلى عزائم من حديد، ونيات مخلصة، وألا نترك للفتن مكان بيننا، نعم يجب علينا ان نستيقظ من غفلتنا حتى لا يعود الاستعمار الأجنبي أشرس مما كان، وتكفينا الذكريات الحزينة عندما كان المستعمر الأجنبي يحارب مدارسنا الدينية، ويستبدلها بمدارس تبشيرية أمام أعيننا، فكيف يحدث ذلك، ونحن

أقوياء بعقيدتنا الإسلامية فقط، علينا أن نستشعر تاريخنا، ونعمل بجد في حاضرنا ومستقبلنا لننجز المعجزات.

ساد النظام التعليمي العلماني في زمن الاستعمار الأجنبي لبلاد المسلمين. في البداية لم تكن الإدارات الاستعمارية تسمح بالتعليم إلا في نطاق محدود، وسمحت بالتعليم الابتدائي والثانوي لفرض خدمة المؤسسات الاستعمارية المسيطرة فقط. أو في العمل في مجال الإنتاج والاستثمار للمواد الخام. أما التعليم الجامعي كان حكرًا على بعض أبناء الأغنياء، وهذا يعتمد على ولاء الناس في كل إقليم.

حارب الاستعمار التعليم الديني الذي كان موجود في الكتاتيب، وظل التعليم في جملته معتمداً على جهد المواطنين الذاتي. وعندما تقدم إدارات الاستعمار على مساعدة التعليم، فقد توجه هذه المساعدة كلها إلى جانب التعليم العلماني بحجة الحداثة. وعمدت الإدارات المستعمرة على تقسيم التعليم في بلاد المسلمين إلى إسلامي وحديث. وبهذا عزلت تعليم اللغة العربية والتعليم الديني ووضعت في خانة التعليم الإسلامي، وأهملته بل حاربتة، ولم توظف خريجيه. في الوقت الذي فيه أعلنت من شان التعليم التجريبي العلماني، ومكنت خريجه في مفاصل الدولة، حتى يكون مرغبا للأجيال القادمة. وفي الجانب الآخر ظل التعليم الديني منفراً للأجيال القادمة لأنهم يرون الإهمال الذي يعاني منه خريجي التعليم الديني، والاهتمام والوضع الجيد لخريجي المدارس العلمانية⁸.

مجال التراث: يعد مجالاً مهماً للتغريب، والتراث هو ما يخلفه السابق للاحق، في الدين، وفي الفكر، وفي الأخلاق، وفي الشرائع، وفي الأدب وفي الفن، وغير ذلك. وإذا بدأنا هذا الموضوع بنظرة إلى كيف تعامل التغريب مع تاريخ أمتنا الإسلامي، نجد أن الغرب لم يعد تاريخنا الإسلامي شيئاً، بل افترض أن التاريخ قد بدأ من الغرب، والغلبة للرجل الأبيض، وبهذا أهمل تاريخنا وشوّهه. وعد الغرب تاريخ " القرون الوسطى " تاريخاً مجيداً فالقرون الوسطى كانت ظلاماً، سبحانه الله، حيث كان يعيش الغرب في ظلام دامس، ولكن كان في عصر ظلامهم هذا نور للإسلام، ونور للتاريخ الإسلامي. وحتى عندما نجدهم يدرسون التاريخ الإسلامي، نجدهم يفسرونه تفسيراً مادياً، ولا يركزون إلا على الحروب أو المشاكل السياسية. وقد

⁸انظر: شلتاغ عبود، 2001م، ص96.

جعلوا التاريخ الإسلامي كله في خانة واحدة، فعندهم القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والفقهاء الإسلامي، ونتاج الفلاسفة، وأثار الشعراء، وأعمال الفنانين والمغنيين، فجعلوا كل هذا في خانة واحدة. وأجروا عليه مقاييسهم من النقد والتجريح، والتفسير والتحليل والحكم، وهذا أكبر دليل على جهلهم بماهية الإسلام . فحاشا لله تعالى أن يضع كلامه في مصاف واحد مع قول البشر. ورسولنا صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى. فبهذه النظرة الاستعلائية، صنف الغرب تراثنا، وقد ساعدتهم احتلالهم لبلاد المسلمين على نقل تراثنا إلى متاحفهم ومكتباتهم، فحققوا الجوانب الضعيفة منه وأهملوا الجوانب العظيمة فيه.

مجال الشعر: نجد التعريبيين ومن ناصرهم من المستغربين قد ركزوا على الأدباء الماجنيين العلمانيين، الذين يسهل التعامل معهم لأنهم على شاكلتهم، ومنحورهم الجوائز العالمية، في الوقت الذي فيه أهملوا عن قصد الشعراء الشرفاء الطاهرين، فهم بانتقائهم هذا قد قصدوا إلى تشويه أدب المسلمين. وإظهاره بمظهر لا أخلاقي، ليس هذا فحسب بل وصل الأمر إلى التشكيل في الشعر الجاهلي، وزعموا زور و بهتاناً أنه ألف في العصر العباسي. لكن بحمد الله يوجد لدينا أدباء إسلاميين حملوا راية التصور الإسلامي للأدب. ويدحضون دائماً ما يقوله المستغربون، لماذا؟ الإجابة بسيطة وسهلة، وهي: أنهم يريدون إرضاء أسيادهم من الغربيين، فهؤلاء لا يستحقون الاحترام منا كما إننا نعلم أنهم محتقرون من قبل أسيادهم أيضاً. إن المستغربين حالوا إيهام الناس بأن الاعتداد بالتراث مظهر من مظاهر التخلف، وإن الحضارة والتقدم والرقي أصلها ومقرها في الغرب، لكن هذا كلام مردود عليهم، لأنه ليس هناك تراث منفصل عن المعاصرة، ولا معاصرة منفصلة عن التراث. وإن التراث يعيش في الحاضر، لأن أي أمة هي وليدة أجيال متعاقبة، وتراث يمتد إلى آلاف السنين. فمن الصعب أن توضع المعادلة بهذا الشكل: إما التراث أو المعاصرة.

ومن ثم تأثر بعض أدبائنا بتلك التيارات الزائفة، فجاء أدبهم مسخاً للواقع والحقيقة، والسنة التي سنها الله رب العالمين، تمثلاً بسنة التجديد، والمعاصرة، والتطور، وما كان التطور في يوم من الأيام إلحاداً وكفراً، وعدم احترام للمصطلحات الدينية.

وقد رأى ابن خلدون . قديماً . ما للترف من أثر سيء في الدولة فعقد في مقدمته فصلاً موضوعه أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده. ويقصد بالحضارة هنا الإفراط في الترف وما يلحقه

من مفسدات تضعف الأخلاق، وتزعزع أركان المجتمع⁹.

ولا بدّ من الوقوف قليلاً حول الآثار السلبية التي تركتها مظاهر التعريب، وتلك المذاهب الأدبية الوافدة. فقد انحرف الأدب والشعر لدى بعض الأدباء المحدثين في مفهومه ومضمونه.

ذكر أحد الشعراء المحدثين . نزار قباني . في كتابه الأعمال النثرية الكاملة: "حين أراد الله أن يتصل بالإنسان لجأ إلى الشعر، إلى النغم المسكوب، والحرف الجميل، والفاصلة الأنيقة. كان بوسعه أن يستعمل سلطته كربّ فيقول للإنسان كن مؤمناً بي .. فيكون، ولكنه لم يفعل. اختار الطريق الأجل، اختار الأسلوب الأنبل، اختار الشعر"¹⁰.

ثم أثبت سورة مريم، وشطّرها على نظام المقطوعات الشعرية، وقطّعها على نظام الشعر الحديث، وبعدها مباشرة قال: "هذه واحدة من قصائد الله. هل أدلكم على قصائد أخرى؟ إذن فافتحوا الأنجيل .. اقرأوا المزامير .. لتروا كيف تسيل حنجره الله بالشعر .. لتروا كيف تشفّ الكلمة حتى لتكاد أن تطير .. لتروا كيف يجلس الله على مسند حرف"¹¹. فقد نسخ . هذا الشاعر . الحقيقة، حين جعل القرآن المعجز بآياته بمرتبة قول الشعر للبشر، وتناسى نزار قباني قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾¹².

مجال الإعلام: فقد نجد أن الاستعمار الغربي والمستعربين قد استخدموه لتشويه الثقافة العربية والترويج للثقافة الغربية بشتى أنواعها. فحدثت طفرة في الإعلام في الآونة الأخيرة استفاد منها أعداء الأمة ووظفوها لتدمير الثقافة الإسلامية. فالإعلام إذا أريد به خير فهو وسيلة اتصال مفيدة للعلم والمعرفة، ولكن الأعداء أرادوا به الشر ورصدوا له الأموال الطائلة فغطت، بل شملت الأقمار الصناعية كافة أرجاء العالم، ودخلت فضائيات الأعداء إلى بيوت المسلمين، وغيّرت من سلوك الكثير منهم، ولكن كما قال الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

⁹ مقدمة ابن خلدون، الباب الرابع من الكتاب الأول من المقدمة.
¹⁰ الأعمال النثرية الكاملة، نزار قباني، 66/7 إلى 69، الطبعة الأولى، 1993م، بيروت - لبنان.

¹¹ المرجع السابق، 69/7 - 70.

¹² سورة مريم.

نحن المسلمون المسئولون عن تربية أولادنا، فيجب أن نمنع وبصرامة فضائيات الأعداء من دخول بيوتنا. ولا نسمح لأي قناة تلفزيونية أو على الشبكة العنكبوتية بأن تستعمل في منازلنا، إلا برقابة من المنزل، أو الأوص من الدولة، وكفاية شكوى، فلننهض ونعمل شيئاً يرضي الله والرسول صلى الله عليه وسلم. فنحن المسلمون إذا تكاتفنا وتركنا الكسل والنوم فلا حرب إعلامية ترهبنا، ولا حرب نفسية تخيفنا. إن الإعلام وأساليبه وأدواته كان له اليد الطولي في عملية التحديث التي تبنتها الدول الغربية وأذناها لتغيير الاتجاهات. وقد اشترك في هذا المخطط عدد كبير من علماء النفس والاجتماع وغيرهم من علماء الغرب. فلنحذر نحن المسلمون ونستيقظ، ويجب ألا نتعاون مع هذا المخطط البغيض، بل يجب أن نأخذ الحيطة والحذر، وأن نتصدى له بجميع الوسائل المتاحة لدينا.

فإذا تساولنا مثلما تساءل الكاتب شلتاغ عبود: " هل وسائل الإعلام المعروفة من صحف ومجلات وكتب وراديو وتلفزيون وانترنت ووكالات أنباء ومحطات فضائية، وأطباق، هل هذه الوسائل تساعد أبناء العالم الإسلامي في رسالتهم الحياتية، وأمانتهم الدينية، وتبصرهم بمسؤوليتهم، وتجعلهم يعوون وظيفتهم في هذه الدنيا؟"¹³. فالإجابة على هذه الأسئلة طبعاً بلا. لأنه صار من المعلوم أن كل هذه الأجهزة الإعلامية تعمل على محاربة المسلمين، وثقافتهم ودينهم. حتى تحول كل المسلمين إلى مستغربين يخدمون المصالح الأجنبية، ولكن هيهات لم ولن يحدث هذا، وأعني لم ولن يتحول كل المسلمين.

قد يتحول القليل منهم، ولكن الأكثرية سوف تستمسك بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وننصح الأعداء أن يوفروا أموالهم وأدواتهم الإعلامية، فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة الإسلامية العظيمة إلا النذر اليسير، الذي ليس فيه خير لبنى جلدته وأهله، فمن المستحيل أن يكون فيه الخير للغرباء، وأنتم تعرفون هذا جيداً. ولكن أصبح من الواضح أنكم تلعبون بهم، وإنهم في جهلهم وغبائهم ضالون. وكما أسلفت هذه الأيام صار اللعب على المكشوف، ولا يندع إلا من سمح لنفسه أن تتخدع، أفلا تلاحظون إن معظم البرامج التلفزيونية الأجنبية خادشة للحياء، وملينة بالإثارة الجنسية؟ أفلا تلاحظون إن معظم الأخبار عن البلاد الإسلامية منتقاة، يختارون الأخبار المحبطة، أفلم تكن هذه حرب نفسية أريد بها تدني الروح المعنوية للمسلمين؟

¹³ شلتاغ عبود، الثقافة الإسلامية، 2001م، ص104.

فالإجابة على هذه الأسئلة كلها بالطبع نعم، هي الحرب، ولكن الأمل في الله كبير، فأول شيء إيجابي يمكن أن نسخره من هذا هو إن المسلمين بحمد الله بطبعهم أذكاء. ويدركون كل هذه المؤامرات، فقط علينا أن نتصدى لها.

مجال اللغة العربية: فهو المجال الأهم الذي حاول الإستعمار العبث به. لأنه يدرك أن اللغة هي الضلع الأكبر من أضلاع نشوء الأمم، وهي أداء ترابط واتصال بين أفراد المجتمع. أما اللغة العربية فهي تتمتع بوظيفة دينية بالإضافة إلى وظيفتها كلغة. فهي لغة القرآن الكريم دستور الأمة، ولغة الفقه والفقهاء، ولغة العلم والعلماء. هذه اللغة قد نقل بواسطتها العلم إلى أوروبا، فنورتها بعد ظلامها الطويل في العصور الوسطى. ولكن بعد ما استيقظ الأوروبيون من نومهم العميق، ماذا فعلوا لكي يرودوا لها الجميل؟ فهم فعلوا الكثير، ولكنه الكثير المسئ. لقد جدد الأوروبيون جميل هذه اللغة، ليس فقط جوداً وكراناً للجميل، وإنما أكثر من ذلك فقد حاربوها، وحاولوا قطع اليد التي امتدت لهم لمساعدتهم. أي أخلاق هذه، إنه انحطاط أخلاقي وديني، هذه هي سمة الإستعمار الغربي، وإذا وسم بأبشع من هذا فقليل عليه. وقد استخدموا عدة وسائل لمحاربة اللغة العربية منها : إشاعت أن اللغة العربية لا ترقى إلى مستوى التحضر. وزعم أن اللغة العربية هي نتاج العقل السامي الذي يعاني من قصور خلقي. ثم حارب الاستعمار اللغة العربية في ديارها. وروج إلى لغاته في عقر دار اللغة العربية. وحصرها في المساجد والمدارس الدينية. كما اتهمها زوراً وبهتاناً بالتخلف وعدم الكفاءة في ميادين العلم والإدارة. وشجع اللغات المحلية لمنافستها كما حدث في نيجيريا بتشجيع لغة الهوسا. ثم اتهم حروفها بعدم المرونة في النطق، فاستجاب لهذا الزعم مصطفى أتاتورك الذي غير الحرف العربي واستبدله بالحرف اللاتيني في اللغة التركية. وبالإضافة إلى ذلك فقد شجع الاستعمار اللهجات العامية لطمس الفصحى، واتهم اللغة العربية بالصعوبة، وغير القابلية للتحديث¹⁴.

مجال الأدب: فقد كان بمثابة البيئة الصالحة التي لعبت فيها وسائل التغريب، وذلك نظراً لتعدد أنواعه من شعر ومسرح وقصة ومقال، وسرعة انتشار الأفكار التي يحملها، وعمق التأثير الذي يتركه في نفوس الناس، والأجيال الناشئة.

¹⁴ المرجع نفسه، ص (105 - 115).

وأول حجة واهية اعتمد عليها الغربيون للعب في أدبنا هي قضية التحديث. فهي كلمة حق أريد بها باطل، أجل التحديث مطلوب، ولكن ليس بالشكل الذي فرضه الأوربيون. فقد حاولوا تدمير بنية القصيدة العربية، بتخفيفهم للقافية بل إزالتها. فتدرجوا للترويج للشعر المرسل ثم إلى الشعر الحر. وقد استعانوا على فرض ذلك المسخ للأدب ببعض الأدباء العرب، الذين بعضهم تعلم في الغرب من أمثال فارس الشدياق الذي تعلم في باريس. ثم توالت محاولاتهم من بعد ذلك عن طريق شعراء الرومانسية العرب مثل عبد الرحمن شكري في بدايات القرن العشرين. وإذا عدنا إلى قضية الشعر المرسل نجده يمثل التنوع في القافية مع الاحتفاظ بوزن القصيدة، أما الشعر الحر فهو لا وزن له ولا قافية، وقد تطور عبث المستغربين بالأدب إلى الدعوة إلى كتابة قصيدة نثرية. فهذا هو الشاعر علي أحمد سعيد، وقد اشتهر بـ (أدونيس)، جاء في ديوانه "هذا هو اسمي . صياغة نهائية"، بعنوان (مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف) ما يأتي:

... في خريطة تمتد إلخ، حيث تتحول الكلمة إلى نسيج تعبر في مسامة رؤوس كالقطن المنقوش، أيام تحمل أفضاذا مثقوبة تدخل في تاريخ فارغ إلا من الأظافر، مثلثات بأشكال النساء تضطجع بين الورقة والورقة؛ كل شيء يدخل إلى الأرض من سم الكلمة، الحشرة الله الشاعر.¹⁵

شعر بالأحرى لا يفهمه إلا مؤلفه، أغاز كتبها الشاعر ليقنع بها القارئ بأنها أدب رفيع، وأبسط ما يقال إنها تشويش للحقيقة الربانية، وعدم احترام للمصطلحات الدينية، التي أول من ينبغي أن يصونها المسلم؟!.

فقد بهر وبهت الأديب المسلم بالحضارة الغربية، دون تفكير أو أناة متحمساً لها داعياً إلى اقتباس أنوارها والافتداء بروادها. ولكن الحضارة . كما نعلم . فهي تحتوي على جوانب إيجابية، وأخرى سلبية " فالحضارة ليست كلها نعماً ومباهج. فكما تكون سبيلاً للرفي والهناك تكون أيضاً سبيلاً للتقهقر والشقاء. ومن أسباب التقهقر والشقاء ما جرّته الحضارة معها من ألوان الترف والرخاء والخلاعة"¹⁶. وبمرور الزمن صارت لتلك الأشكال من القصيدة مناصرون من المستغربين وأيضاً من الآخرين الذين رؤوا فيه لوناً جديداً يعدّ إضافة إلى الأدب العربي. وكما أسلفنا فإن هناك من يعد هذه المحاولات تدميراً للأدب العربي الأصيل الموروث عن الأجداد. على كل حال لقد أردنا في هذه العجالة أن نوضح أصل الحكايا ألا وهي مؤامرة من المستغربين

¹⁵ هذا هو اسمي، أدونيس، 19، دار الأدب، بيروت، 1988م.

¹⁶ الدكتور أنيس المقدسي، 1977م. الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين: بيروت، ص 216.

لتشويه الأدب العربي، حتى لو صارت في المستقبل اتجاها محمودا للبعض، إلا أنه سيظل دخيلا على الأدب العربي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الذين يدافعون عن الشعر المرسل والحر والقصيدية النثرية هم في الغالب من خريجي الجامعات الأوربية، سواء أن كانوا مستغربين أو غير ذلك. وتوجد هنالك أمور لا بد من التوقف عندها، وهي الكمية الكبيرة المنتجة من الأدب المكشوف في مجال القصة والمسرح، وقد وجدت السينما العربية والمسلسلات التلفزيونية في ذلك مادة خصبة أثرتها ومكنتها من الاستمرار، ودافعت عن هذه الأعمال بحجة الواقعية ومعالجة المشاكل الاجتماعية. " وما هو إلا تزيف وانحراف عن الفطرة البشرية والدين. وقد جند لهذا التيار روائيون كبار معروفين بنتاجهم العلماني. ومن مشاكل التغريب في الأدب دخول النظريات النقدية المستمدة من الحياة الأوربية إلى الأدب العربي، حيث يختلف الواقع الديني والاجتماعي تماما عن الواقع الغربي، كما نجد أن بعض المذاهب الأدبية مثل الوجودية، والسريالية، والبرناسية، واللامعقول كان لها أثر سلبي للغاية في الأدب العربي. وأيضا قد نجد أن التغريب قد تفنن في أساليبه الماكرة مثل استعماله لشعارات مضللة مثل شعار " عالمية الأدب" وبذلك المكر أراد لنا التغريب أن نتخلى عن أدبنا القومي، ونتعلق بأداب الشعوب الأوربية¹⁷.

رابعاً: العولمة

فهو مجال جديد، قد استحدثه الإستعمار بوجهه الجديد. والعولمة لغة: هو لفظ مشتق من كلمة " العالم " التي تعني الدنيا التي نعيش فيها.

والعولمة اصطلاحاً: هذا مصطلح جديد، وله عدة تفسيرات مثل: القرية الكونية، وسرعة انتقال المعلومات والتجارة حول العالم، ولكن المعنى الذي أعجبني هو اختراق ثقافات الأمم الضعيفة، واحتلالها من قبل ثقافات القوى الكبرى. وظهر هذا المصطلح في الآونة الأخيرة، وتبنته الدول الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بعد ما استشعرت هذه الدول قوتها، وضعف العالم الثالث الذي يضم جميع الدول الإسلامية بلا استثناء، وروج لهذا الشعار أهله الأصليين، أعني الغربيين، بالإضافة إلى أذناهم وهم المستغربين، فالهدف منه هو عودت الاستعمار بشكل جديد، وحيث تتم من خلاله سيطرة الدول الغربية عسكرياً

¹⁷ مرجع نفسه، ص (116 - 122).

واقتمادياً، وذلك سوف يمهّد لتغريب الأمم الأخرى بالكامل. أما من الناحية الثقافية، فنجد الغربيين قد ركزوا على النتاج الغزير من الآداب، وعلوم اللغات وغير ذلك، وأصدروا العديد من الصحف والمجلات، وسوّقوا لكل هذا عبر وسائل الإعلام المختلفة، وبالأخص الحديث منها مثل الفضائيات التي غزت البلاد الإسلامية، والشبكة العنكبوتية التي أحكمت عليهم قبضتها إلا من رحم ربي. أما من الناحية السياسية، فقد ساعدت الظروف، الغربيين على التفوق على البلاد الإسلامية. فنجد إن ميزان القوى الذي كان بين الغربيين والإتحاد السوفيتي قد مال لصالح الغربيين، والولايات المتحدة الأمريكية. فذلك سمح للنظام الرأسمالي أن يسود العالم ويفرض إرادته على الشعوب الأخرى. ومن ناحية أخرى، فقد نجد أن الاضطرابات السياسية قد عمّت الكثير من البلاد الإسلامية، وبالطبع كان للغرب اليد الطولى في أسباب هذه الاضطرابات¹⁸.

خامساً: البعثات المصرية إلى أوروبا:

انسحب الجيش الفرنسي من مصر في عام 1801م. وقد ذهب مع هذا الجيش المنسحب مجموعة من الطلبة المصريين بغرض الدراسة في أوروبا. ولكن هؤلاء الطلبة استقروا في فرنسا إلى الأبد، وانصهروا في المجتمع الفرنسي، ولم يعودوا إلى مصر. وفي عام 1813م قررت الحكومة المصرية بقيادة محمد على باشا إرسال مجموعة أخرى من الطلبة للدراسة في إيطاليا. ولكن هذه المجموعة لم يعرف منها سوى طالب واحد وهو " نقولا مسابكي أفندي " الذي عاد إلى مصر وشغل منصب مدير مطبعة بولاق. وفي عام 1818م أرسل محمد على باشا مجموعة من الطلبة إلى فرنسا لدراسة الفنون الحربية والبحرية، وهذه المجموعة أيضاً لم يعرف منها أحد سوى الطالب " عثمان نور الدين أفندي "، الذي عاد إلى مصر وعمل في الجيش المصري، وتدرج في الرتب العسكرية إلى أن وصل إلى رتبة قائد الأسطول المصري.

أما أهم بعثة طلابية مصرية، هي البعثة التي أرسلها محمد على باشا إلى فرنسا في عام 1826. وقد تنوعت تخصصاتهم هذه المرة أكثر من المرّات السابقة، وقد كانت تخصصاتهم على النحو الآتي: العلوم العسكرية، الإدارة والإحصاء، والرياضيات، الكيمياء، وعمليات السبك، الطب البشري، الطب البيطري، علوم البحرية وفنونها، الرسم والمعمار، الزراعة والاقتصاد الزراعي، المعادن والتاريخ والجغرافيا، الترجمة واللغات.

¹⁸ مرجع نفسه، ص (123 - 129).

وسافر الشيخ رفاة رافع الطهطاوي مع هذه البعثة كواعظ للطلبة، ولكنه عندما وصل إلى فرنسا قدم طلباً للحكومة المصرية ليسمحوا له بالدراسة، وبالفعل سمحوا له بدراسة الترجمة نظراً لتمكنه من اللغة العربية.

سادساً: من أعلام الأدباء والمفكرين.

1- رفاة رافع الطهطاوي:

ولد رفاة رافع الطهطاوي في طنطا بجمهورية مصر العربية في عام 1801م.¹⁹ وقد عُرف منذ صغره بنبوغه الأدبي، وحبّه للشعر، وعندما بلغ السادسة عشر من عمره عام 1817م.²⁰ جاء إلى القاهرة ليدرس بالجامع الأزهر. ودرس في الأزهر علوم الدين واللغة، وبعض كتب التصوف والتاريخ والمختارات الأدبية. وقد كان طالباً مجتهداً وشاعراً بالمسؤولية، وذلك نسبة لوفاة والده منذ صغره، ورعاية أخواله له، الذين كانوا معلمين بالجامع الأزهر. وهذا ساعد رفاة وزاده تشجيعاً، وبعدما تخرّج رفاة في الجامع الأزهر عمل معلماً فيه، إلى أن سافر إلى فرنسا في عام 1826م. في البداية كان مصطحباً للطلبة كواعظ، ولكنه بعدما وصل إلى فرنسا انخرط في الدراسة، وقد ساعدته الحكومة المصرية، وسمحت له بدراسة الترجمة، وعندما أكمل رفاة دراسة الترجمة عاد إلى مصر. وعمل في مجال الترجمة، وأسهم في إنشاء المدارس، وتنظيم التعليم. وكان من الوطنيين المخلصين الذين لم يخونوا بلادهم أبداً. ولكنه تأثر قليلاً بالأدب الفرنسي تأثراً لم يفقده هويته، ولم يصل إلى حد التغريب. فهذا الرجل يعدّ نموذجاً صالحاً للطلاب المثالي الذي سافر إلى الغرب ودرس واستفاد، ثم عاد إلى وطنه مخلصاً ووفياً. توفي الشيخ رفاة رافع الطهطاوي في عام 1873م، وترك لنا أعمالاً أدبية رائعة خلدت ذكره العطرة. ومن الأعمال التي تأثر فيها الشيخ رفاة بالأدب الفرنسي هي ترجمته بتصرف لنشيد " المارسليز " وهو النشيد القومي الفرنسي بعد الثورة الفرنسية، الذي ألفه " روجيه دي لوازل ". وقد تصرف رفاة في ترجمته هذا النشيد، وحب رفاة لهذا النشيد يعكس لنا إعجابه بمضمونه الثوري، وما يحمله من دعوة إلى الحرية والعدالة.²¹

نشيد المارسليز:²²

¹⁹ طه وادي، 1993م، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 5.

²⁰ مرجع نفسه، ص 17.

²¹ مرجع نفسه، ص 225.

فَهَيَّا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ هَيَّا فَوْقْتُ فَخَارِكُمْ لَكُمْ تُهَيَّا

أَقِيمُوا الرِّيَاةَ الْعُظْمَى سَوِيًّا وَشَنُوا غَارَةَ الْهَيْجَا مَلِيًّا

فَهَيَّا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ هَيَّا

عَلَيْكُمْ بِالسَّلَاحِ أَيَا أَهَالِي وَنَظْمُ صَفُوفِكُمْ مِثْلُ اللَّالِي

وَخَوْضُوا فِي دِمَاءِ أَوْلَى الْوَبَالِ فَهَمُّ أَعْدَاؤِكُمْ فِي كُلِّ حَالِ

وَجُورِهِمْ غُدًّا فِيكُمْ جَلِيًّا

أَمَا تَصْنَعُونَ أَصْوَاتَ الْعَسَاكِرِ كَوْحَشِ قَاطِعِ الْبِيدَاءِ كَاسِرِ؟

وَخَبْتُ طَوِيَةَ الْفِرْقِ الْفَوَاجِرِ ذَبِيحُ بَيْنِكُمْ بَطْبَا الْبِوَاتِرِ

وَلَا يَبْقُونَ فِيكُمْ قَطُّ حَيًّا

فَمَاذَا تَبْتَغِي مَنَّا الْجُنُودُ وَهَمُّ هَمِّجٍ وَأَخْلَاطُ عَيْبُدُ

كَذَا أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْوَعُودُ كَذَاكَ مَلُوكِ بَغِيٍّ لَنْ يَسُودُوا

تَعْصِبُهُمْ لَنَا لَمْ يُجِدْ شَيْئًا

لَمَنْ جَعَلُوا السَّلَاسِلَ وَالْقَيْودَا وَأَغْلَالًا وَأَطَوَاقًا حَدِيدَا

لِأَهْلِ فَرَنْسَا لِيُرُوا عَيْبِدَا وَلَيْسَ مَرَامُهُمْ هَذَا جَدِيدَا

أَمَا هَذَا عَجِيبٌ يَا أُخَيَّا ؟

وَكَيفَ يَسُوعُ أَنْ نَرْضَى رِعَاةَا مِنْ الْأَغْرَابِ يَبِغُونَ ارْتِفَاعَا

²² مرجع نفسه، ص (225 - 228).

ويجري شرعهم فينا شرعاً وأنذالاً لديهم لا تُراعى

رعايا، بل نُكَبُّ على المحيا؟

فسلِّمْ يا سلامٌ من المذله فما نرُضى بأن نَبقى أذلَّةً

2- طه حسين :

ولد في عزبة " الكيلو" بمحافظة المنيا بجمهورية مصر العربية في عام 1889م. أصيب بمرض الرمد في عيونه منذ صغره نتيجة لإهمال العلاج، ثم إعطاه الدواء الخطأ، فقد بصره تماماً. وحفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز التسع سنوات. ونجده قد عانى كثيراً من الألم في طفولته نتيجة لفقدانه بصره. وقد عبّر عن هذا الألم في كتابه "الأيام". وأيضاً قاسى طه حسين في طفولته من حياة الفقر ما قاسى، لأن والده كان دخله محدوداً، ومسؤولاً عن أسرة كبيرة. وكانت الحالة العامة للريف المصري الذي عاش فيه طه حسين أيام طفولته وصباه، تتسم بقلّة الوعي الصحي، وانتشار الخرافات، وهبوط المستوى الثقافي والتربوي. والشخصيات الأولى التي احتك بها طه حسين كما ذكر في كتابه الأيام، هم: أبيه وأمه، وسيدنا، وأخوته، ومفتش الزراعة، وعلماء الدين. في عام 1902م انتسب إلى الأزهر الشريف وأعجب بالشيخ محمد عبده وبتفسيره للقرآن بالطرق الحديثة، وتأثر بالشيخ المرصفي، وبطريقته في تدريس الأدب التي تختلف عن منهج الأزهر الشريف. وكذلك تأثر طه حسين بعلماء آخرين متحررين يدعون إلى حرية المرأة، وينادون بمعايير جديدة في السياسة والإجتماع، في وقت كان الكلام في هذه الأمور يُعدّ من الجرائم الإجتماعية. ولكن جرأة هؤلاء العلماء والأساتذة قد أثرت على طه حسين تأثيراً بالغاً، وجعلته يكون في المستقبل. صاحب جرأة في أمور كثيرة²³.

قضى طه حسين أربعة أعوام في الأزهر وصفها بأقسى العبارات، لأنه لم يكن راضياً عن طريقة التدريس التقليدية في الأزهر. وفي عام 1908م. أنشأت الجامعة المصرية القديمة، فسارع طه حسين للإلتحاق بها. وأعجب بها إعجاباً كثيراً، لأن طريقة التدريس فيها تختلف عن طريقة التدريس في الأزهر. تتلمذ طه حسين في الجامعة المصرية القديمة على أيدي أساتذة متحررين مصريين كانوا أو أجانب. نذكر

²³ د. عبد العزيز شرف، 1966م، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص (7 - 24).

منهم على سبيل المثال الأستاذ الفرنسي ((لويس كليمانت Louis clement)) ، الذي درسه الأدب الفرنسي. وفي عام 1914م قررت الجامعة المصرية إيفاده في بعثته دراسية إلى فرنسا، فسافر والتحق بجامعة مونبلييه، وفيها درس اللغة الفرنسية، وبعض الدروس في علم النفس، والأدب الفرنسي، والتاريخ الحديث. وفي سبتمبر 1915م عاد طه حسين إلى مصر؛ لأن الجامعة المصرية قد ساءت حالتها المالية، ولكن السلطان حسين كامل قد تدخل، وحل أزمة الجامعة، فأعادت إيفاد مبعوثيها إلى فرنسا، ومن ضمنهم طه حسين. فعادوا إلى فرنسا في أول يناير 1916م . وقد تمكن طه حسين من الحصول على درجة الليسانس في الآداب من جامعة السوربون. وفي 9 أغسطس 1916م، اقترن بزوجته الفرنسية "سوزان بريسو" التي كان لها أثراً بالغاً في حياته، فهي التي كانت تصطحبه إلى مكتبة القديسة " جنيفاف"، وساعدته في الحصول على رسالة الدكتوراه عن ابن خلدون التي توقفت في يناير من عام 1918²⁴.

اتبع طه حسين في تأليفه لكتابه الذي أسماه (الشعر الجاهلي)، المنهج الديكارتي، المعروف بمنهج الشك من أجل الوصول إلى اليقين، حيث أبرز بعض الآراء الجريئة، وأهاج بذلك ثائرة المتدينين ، وأتى فيه بما يخل بالنظم العامة، ويدعو الناس للفوضى²⁵.

تعرض طه حسين الى القراءات السبع المجمع عليها من قبل جميع علماء المسلمين، فزعم: "عدم إنزالها من عند الله تعالى، وأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسب ما استطاعت، لا كما أوحى الله بها إلى نبيه. مع أن معاشر المسلمين يؤمنون بأن كل هذه القراءات مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم"²⁶.

طعن طه حسين في نسب النبي صلى الله عليه وسلم: فقال زوراً وبهتاناً: " ما يتصل بتعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية أسرته، ونسبه إلى قريش، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون من صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم من صفوة بني عبد مناف، وأن يكون صفوة

²⁴ مصدر نفسه، ص (25 - 31).

²⁵ أنظر: خيرى شبلي، 1994م، محاكمة طه حسين، الاسكندرية: دار ومطابع المستقبل، ص 56.

²⁶ مرجع نفسه، ص 57.

بنو عبد مناف من صفوة بني قصي، وأن يكون بنو قصي من صفوة قريش، وقريش من صفوة مضر، ومضر من صفوة عدنان، وعدنان من صفوة العرب، والعرب من صفوة الإنسانية كلها".²⁷

أنكر طه حسين أولوية الإسلام في بلاد العرب: فقال: " أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولوية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم. وأن يكون خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل...".²⁸

3- محمد كمال حسن.

أصله من منطقة فاسير ماس " Pasir Mas" بولاية كلنتان، تلقى تعليمه الأولى في مدرسة انجليزية ، إلا أنه كان مشغولاً بالعلوم الإسلامية، ثم حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة الملايا في الدراسات الإسلامية، وشهادتي الماجستير والدكتوراه من الولاية المتحدة الأمريكية. وعمل في الجامعة الوطنية الماليزية في قسم الدراسات الإسلامية.

له بعض المؤلفات في القضايا الإسلامية، التي تهتم بالتربية والأدب، والفكر الإسلامي، وغيرها.²⁹ وأنه يدعم فكرة الأدب الإسلامي الذي ظهرت في أوساط الأدباء الملايويين، الذين تحمسوا لفكرة أسلمة الأدب. والذين كانوا على تواصل فكري مع الأدباء الإسلاميين في شتى بلاد المسلمين مثل: سيد قطب، ومحمد قطب، وعماد الدين خليل ومحمد إقبال، وغيرهم. فالدكتور كمال حسن على الرغم من إقامته في الولايات المتحدة لفترة طويلة لغرض الدراسة، إلا أنه لم يتأثر بالغرب، ولكنه تأثر بالأدباء الإسلاميين، وعلى رأسهم محمد إقبال. وهو من المشاركين في تأسيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا . وقد عمل بها محاضر وتدرج في وظائفها الإدارية إلى أن وصل إلى منصب مدير الجامعة. وهو الآن أستاذ مميز بالجامعة الإسلامية العالمية، وقد منحته الحكومة الماليزية درجة الأستاذية المميزة. ورسالته لنيل درجة الدكتوراه كانت حول تطوير الحركات الإسلامية في اندونيسيا. ولذلك عنده فكرة واضحة حول انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو، وثقافة الشعب الملايو الإسلامية المعتمدة على الوسطية بعيداً عن التطرف. فهو أديب ومفكر

²⁷ مرجع نفسه، ص 58.

²⁸ مرجع نفسه، ص 59.

²⁹ عدلي بن يعقوب، 2009م، مناهج الأدب الإسلامي عند الأدباء الملايويين والعرب في العصر الحديث، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، ص

إسلامي، ويفهم جيداً تطور ومراحل انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو، وظروف الشباب الملايو وعاداتهم وتقاليدهم.

4- سيد نقيب العتاس.

ولد في جاوى الشرقية بإندونيسيا . ثم انتقل مع أسرته إلى ولاية جهور في شبه الجزيرة الماليزية. وتعلم بمدرسة انجليزية في جهور، وبعد ذلك التحق بالمدرسة الملكية للدراسات الإفريقية ببريطانيا "SOAS" وعلى الرغم من إقامته في بريطانيا لفترة طويلة أثناء الدراسة، إلا أنه تمسك بالفكرة الإسلامية، ولم يتأثر بالغرب. وعندما عاد إلى ماليزيا عمل محاضراً بالجامعة الوطنية الماليزية. ثم شارك في تأسيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وشغل منصب أول مدير لمعهد الفكر والحضارة الإسلامية التابع للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وكانت رسالته لنيل درجة الدكتوراه حول التصوف الإسلامي، وفكرة وحدة الوجود ووحدة الشهود. وبرأ فيها حمزة الفنصوري من التهم التي وجهت له. وللدكتور العتاس دور كبير في تطوير الفكر الإسلامي في ماليزيا. كما له مؤلفات كثيرة ومهمة لبناء حضارة الأمة الإسلامية، منها: كتابه القيم عنوانه "ISLAM AND SECULARISM" الإسلام والعلمانية.

5- محمد إقبال.

هو محمد إقبال بن الشيخ نور محمد، ولد في مدينة سالكوت "Sialkot" بالبنجاب الغربية في 1877/11/9م . بعد إكماله للمرحلة الثانوية، سافر إلى أوروبا والتحق بجامعة ميونخ في ألمانيا. وبعد تخرجه في الجامعة عاد إقبال إلى وطنه، ولم يتأثر بالغرب. ولكنه كرس حياته لخدمة الأدب الإسلامي. شغل إقبال منصب رئيس حزب العصبة الإسلامية في الهند، وكان عضواً بارزاً في مؤتمر اسلام آباد التاريخي حيث طالب فيه بانفصال المسلمين عن الهندوس وهو من أهم المؤسسين لدولة باكستان. أما من الناحية الأدبية فهو شاعر. وفيلسوف مسلم، بالإضافة إلى أنه مفكر، وله نتاج أدبي مقدر، وله باع ليس بالقصير في مجالات الفلسفة والفكر. وقد نجد محمد إقبال مولعاً بالاشتغال. فهو لا يكتفي بالحركة العادية للكون، وإنما يثيره الاشتغال. ولكننا في نهاية المطاف نتبين أن هذه الحركة التي تملك إقبال، تمثل حقائق إسلامية دائمة وإن العقيدة الإسلامية عندما تملك نفساً من النفوس تثبت فيها حركة فاعلة ونشطة. وبذلك

المشاعر الإسلامية التقت العقيدة الإسلامية مع الفطرة الإنسانية. وهناك شخصيات كثيرة -دون شك- ولكن كان اختيارنا لهذه الشخصيات اختياراً عشوائياً، القصد منه التنوع.

الخاتمة

عمد الاستعمار إلى التأثير في صفوة المجتمع الإسلامي وهم العلماء، والمفكرين، والأدباء. فخطط لذلك ونفذ خطته منذ زمن بعيد، ووجد أذن صاغية من المستغربين. وقد استعملوا وسائل متعددة لإضعاف المسلمين منها: إثارة الفتن، وإغراء الطلبة المسلمين بأسلوب حياتهم الفاسدة. فسلطوا إعلامهم لخدمة مصالحهم، واستغلوا العولمة لنشر ثقافتهم ومحاربة ثقافة المسلمين. وكذلك لإنعاش اقتصادهم وإضعاف اقتصاد المسلمين، وبذلك يكون المسلمون في حاجة إليهم دائما. فيسهل استعمارهم من جديد، ولكن بشكل مختلف. وفي نهاية هذه الدراسة أعطينا نماذج من العلماء والمفكرين، والأدباء الذين قاوموا لسبيل الاستعمار، وخطه، وبنوا في شعوبهم روح الكفاح والحرية والاستقلال، والتمسك بدينام دينهم.

المصادر والمراجع:

- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الباب الرابع من الكتاب الأول من المقدمة، القاهرة، ط1.
- أبو القاسم الشابي الشابي، -ديوان أبي القاسم الشابي، دراسة وتقديم عزالدين إسماعيل، بيروت: دار العودة، عام 1972م.
- أدونيس، هذا هو اسمي، دار الأدب، بيروت، ط1، عام 1988م.
- إسماعيل الفاروقي، 1984م، أسلمة المعرفة، الكويت: دار البحوث العلمية.
- أنور الجندي، 1999م، الفكر الإسلامي، القاهرة: دار الاعتصام للطباعة والنشر.
- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، عام 1977م.
- خيري شبلي، 1994م، محاكمة طه حسين، الأسكندرية: دار ومطابع المستقبل.
- شلتان عبود، 2001م، الثقافة الإسلامية، لبنان، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

صلاح عبد الصبور، الناس في بلادي، دار العودة، بيروت، عام 1986م.
طه وادي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 1993م.
عباس حسن، المتنبى وشوقي، دراسة ونقد وموازنة، مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مطابع دار
المعارف، عام 1976م.
عبد العزيز شرف، 1966، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
عدلي بن يعقوب، مناهج الأدب الإسلامي عند الأدباء الملايويين والعرب في العصر الحديث، ماليزيا،
عام 2009م، مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية.
محمد عمارة، 1991م، مجلة إسلامية المعرفة، القاهرة: دار الشرق الأوسط.
نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، الطبعة الخامسة، عام 1993م، بيروت.
نزار قباني، الأعمال النثرية الكاملة، الطبعة الأولى، عام 1993م، بيروت . لبنان.
نصرالدين إبراهيم أحمد، الأدب الإسلامي؛ الإطار والمنهج، ماليزيا، مركز البحوث، الجامعة الإسلامية
العالمية، الطبعة الثانية، عام 2007م.